

بين القديم والجديد

للأستاذ محمد فرید وجدی



منذ أن أعلن العلم
الحرب على الدين
في القرن السادس
عشر ، لم ين
عن مناوأة حيث
ثقفه ، اعتقاداً منه
أن الدين لا يقوم
على أصل ثابت له
علاقة بإبصال
الإنسان إلى كاله
ولكنه قائم على
الأهواء التي يهتها

حب الذات في النفوس ، وعلى الأهواء التي لا يمكن أن يقام على
وجودها دليل ، والتي يكفى في دفع سحرها عن المقبول نشر العلم
الصحيح بين الناس ، والعلم قد بنى على أساس دستور العرف ،
وهو أن لا يقام لمقول وزن إلا إذا أيدته دليل من الحس ، وأنى
للمقائد الدينية أن تجد دليلاً محسوساً لتقيم عليه وجودها ؟

وقد وفق رجال العلم إلى جانب هذا لكشف الكثير من
مساوئ الوجود ، ودرسوا نوااميسها ، وأقاموا عليها محترعات
ووسائل ذات أثر بالغ في كل فرع من فروع المحاولات الإنسانية؛
فكما ترى أثر العلم في المدن بادية في مصنوعاتها ومنتجاتها المحيرة
للمقل ، وفي علاجها وذرائمها الخفيفة الآلام ، الزيلة للأمراض ،
ترى في القرى في آلات الحرت والرى والبذر والتسميد والحصاد
والنقل الخ الخ ، فهذه الظاهر كلها أثرت في العقلية الإنسانية ،
وخاصة عقلية التملين تأثيراً عظيماً جعل للعلم فيها منزلة القوامة
عليها ؛ فإذا بدا لهم مجهول ، أو أعوزهم ترجيح ، رجعوا فيه إلى
العلم ، ووقفوا منه عند حكمه ، وقد علمت رأى العلم في الدين ،

فإذا تنتظر أن يكون عليه الناشئون بين حضنيه ، المولون في بناء
أحكامهم عليه ؟

هذا الأثر قد لحظناه في أنفسنا ونحن في دور الدراسة ، وكابدنا
للتوفيق بين عقيدتنا والمعلم مشاقاً مضمية ، وعملنا لنشر ثمرات
ماحصلناه كتباً ، ولا تزال جادين في هذا الطريق ثقة منا بأن
مستقبل الإسلام بموافقة للمعلم ، وأن الذين لا يتطلبون هذه الموافقة
ولا يتكفون لإيجادها مثل ما تكافئناه ، تساورهم الشبهات والشكوك
من كل مكان ، وينتهي بهم الأمر إلى الإلحاد .

إن أشد ما يصادفه طالب الإيمان من طريق العلم هي ما في
الأديان من شئون ما فوق الطبيعة ، فالعلم الرسمي لا يزال قائماً على
ما كانت عليه من ثقبها نقياً ياناً ، وحسيان كل ما يتعلق بها من
بقايا الخرافات الساذجة ، فالتوفيق بين العلم والإيمان من المحالات
البعيدة الوقوع ، لذلك بشيع الإلحاد في طلبة العلم الكونية
وفي أسانذهم ؛ ومن كان منهم يعطف على الإيمان بها ، يكون
مقوداً إليه بماطمة لا بدليل ، ولا يستبر هذا إيماناً في نظرها .

فهل من مخرج من هذا المأزق ؟

نعم ، وقد وجد منذ مائة سنة وهو ما كشفه العلماء المايون
من خصائص الروح الإنسانية وعلاقتها بعالم ما فوق الطبيعة بمد
دراسات عميقة وجهود مضمية صرفوها في تتبعها في جميع حالاتها
ودونت في مثبات من المؤلفات القيمة .

إن هذه الدراسات العملية المحضة التي عاهاها ولا يزال يعادها
بمثلة الأديان في جميع الملل ، قد محصت تحميصاً لم تنله العلم
الطبيعية ذاتها ، وذلك لدرابتها وشدة ما كانوا يكذبون بها . فقد
أثبتت هذه الدراسات والتجارب العملية وجود عالم فوق الطبيعة
متحكم في عالمنا الأرضي ، ومصرف له على مقتضى النظام الخاص
به . عالم تملل بهوامله جميع ما عجز الفلاسفة والملاء عن تعليه في
العالم الأرضي ، ونخيلوا له عللاً وهمية أو سكتوا عنه حيرة ومحجزاً .
كانت الحاجة ماسة جداً في النصف الثاني من القرن التاسع
عشر إلى هذا الفتح العظيم في العلم ، فقد كانت المعلومات التي لم
تقبل التعليل قد بلغت حداً مؤيساً ، واكتشف النقلة العليرون
جهات ضعف في العلم نفسه لا يمكن الإغضاء عنها .

وقد بين هذا الأمر الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) بأوفى
بيان في كتابه القيم (بحول المادة) الذي ظهر في سنة ١٩١٠ فقال :

تخصص لها دراسات في بعض الجامعات الكبرى كجامعات
أ. كسفورد وكيريدج وبورك ، وجامعات أمريكية أخرى .

هذه البحوث الروحية التي أمضت قرناً كاملاً تحت فحص
أعنى العقول البشرية ، وأشدّهم شكيمية في العقيدة المادية ، قد
أثبتت وجود عالم روحي ، وشاهدت حوادث من قبيل تحكّم
الروح في المادة تحليلاً وتركيباً ، وخرقاً للنواميس الطبيعية
خرقاً لا هوادة فيه ، فانتست أمام أنظارهم منادح النظر العالي ،
وأدركوا بالحس فساد النظرية الآلية التي كانوا يملكون بها وجود
الكون المادي ونظامه واتساقه ، والحياة نفسها وما إليها ،
وأصبحت النواميس الطبيعية في نظرم ليست بالقوى الأزلية
الأبدية التي صاحبت الكائنات في وجودها ، ولكنها مظهر لقوى
مدبرة أرفع منها .

هذه الاستكشافات الحديثة تفتح أمام العقل الإنساني حقائق
كانت فلسفة العلم المادي قد جعلتها من المحالات العقلية ، مثل
وجود قدرة عالية تدبر الكون والكونيات ، ووجود روح في
جسم الإنسان مستقلة عنه تخلد بعد انحلاله ، ومثل بعثة أرواح
عالية الأسم في فترات من الدهر سمحهم الناس بالرسول ليهيئهم إلى
الحيور ، ويزعومهم عن الشرور ، ويمهدون لهم سبيل الارتقاء .

هذه البحوث لم تجتز عتبات الجامعات وتأخذ مكانها في
مصاف العلوم ، إلا لأنها قد جاوزت دور الفحص العلمي ،
وأصبحت حقائق لا يمكن التماهي فيها .

فالسيد الوحيد الذي أراه يقاوم تيار الإلحاد المدفع الذي
يكتمح أمامه الأمم والشعوب ، ويلقى بها إلى مكان سحيق من
الفوضى والفساد الخلق والتناحر ، هو أن يتضلع علماء الدين من هذا
العلم الجديد ، ويستخدموه لحل شبهات المشتهين ، وكبح جماح
المستهترين . وما المانع لهم من ذلك وهو يزيد في دعوتهم تأثيراً ،
ويبقى على حججهم نوراً ، ويقدم من معاطس الفلسفة الذين
يتخيلون أنهم وحدهم الذين خلصوا من أوهام العقائد ، وكل
من عدام يرسف في أغلالها ويتمتر في أذيالها ، ويحمل عقله تصديق
خيالات لا وجود لها .

هذا الموقف وحده يحفز الدافعين عن العقائد أن يمدقوه لكم
أفواه المتحدثين من الماديين . فإظنك والضرورة أصبحت تقتضيه
نم تقتضيه لأن انتشار التلميم في الأمة الإسلامية تسرب

« إذا اتفق أن فيلسوفاً من المنصفين إلى دراسة الموضوعات
ذات الحدود المهمة ، قرأ منذ عدة سنين كتاباً في العلم الطبيعي
كان يدهش من وضوح التحديدات فيه ، وصحة البراهين ، وضبط
التجارب ، فكان لا يسمه إلا الانحناء أمام هذه النتائج الفخمة .

« دامت هذه العقيدة في المقررات الكبرى حافظاً لغوتها
في العلم المصري إلى أن حدثت في الأيام الأخيرة مكشفات غير
منتظرة قضت على التفكير العلمي أن يكابد من الشكوك ما كان
يبتقد أنه قد تخلص منه أبد الأبيد . فان الصرح العلمي الذي كان
لا يرى صدوعه إلا عدد محصور من العقول المالية ، تززع فجأة
بشدة عظيمة ، وصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة
للعيان بعد أن كانت من الخفاء بحيث يكاد لا يبلها الظنون . .

« وقد صدرت مؤلفات على مثال الكتاب الثمين المسمى
(العلم والافتراض) له نرى بوانكاريه ، تؤتينا بالبرهان على ما
نقول في كل صفحة من صفحاتها ، فلقد أرانا هذا الرياضي
المشهور أننا نميش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى في مجال
العلوم الرياضية .

« وقد كتب الأستاذ (لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول:
انه لا توجد لدينا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولاً تاماً ،
ويجمع عليها المجرّبون إجماعاً عاماً ، ولكن يسود اليوم العلوم
الطبيعية ضرب من الفوضى . . ولم يظهر أن ناموساً من النواميس
الطبيعية يتمر ضرورياً ضرورة مطلقة . والآراء التي كانت تظهر
لن سبقنا أنها تأسست تأسساً ثابتاً صارت اليوم لدينا موضوعات
تحت المناقشة .

وختم الأستاذ (جوستاف لوبون) الآراء التي أوردها لكبار
العلماء بقوله :

« من حسن الحظ لاشيء أكثر ملاءمة للرق العلمي من هذه
الفوضى ، فالوجود مغمم بمجهولات لا تراها ، والحجاب الذي
يحجبه عنا منسوج غالباً من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها
علينا تقاليد العلم الرسمي . . الخ »

نقول وفي أثناء هذه اليقظة من الفرور العلمي ظهر علم ما
فوق الطبيعة ، ودرست ظواهره ، وعممت تحميمها دقيقتاً ،
وتولاهها رجال من ذوى الكفايات الممتازة أوصلوها إلى غايات
بعيدة ، وأقدموها على أسول وطيدة ، بحيث صارت أهلاً لأن